الدلالة والمعنى لسانيا

أ.د. عبد الجليل مرتاض
(جامعة تلمسان)

1) **هل من تعريف لساني للمعنى ؟**

كان ماروزو إلى عهد قريب يعرّف معنى الكلمة بكل بساطة بأنه مجموعة من التمثلات القابلة لأن تكون مستوحاة بوساطة الملفوظ الذي توجد فيه هذه الكلمة، فكلمة "كيف" المستفهم بها عن حال الشيء وصفته يرتبط معناها بالموصوف المستفهم أو المسؤول عنه صحة وسقماً، وغنى وفقراً، حضوراً وغياباً، ... وعلى قدر حال المستفهم عنه يتحدد معناها لدى المتلقي، وقد تخرج عن هذا كله دلالةً على معاني بلاغية كالتعجب والإنكار والتوبيخ، بل ربما تضمنت معنى النفي، كقوله جلّ ثناؤه: "كَيْفَ يَكُونُ للمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عند الله"، و"كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ"، أو كقول الشاعر:

كيف يَرْجُـون سِقَـاطِي بَعْدَمَـا لاَحَ فِي الـرَّأْسِ مَشِيـبٌ وَصَلَـعْ ؟

وخذ لذلك مثلاً كلمة "العين" التي تقع على أشياء مشتركة: "الباصرة"، "عين الماء"، "عين الشمس"، "العين (الجارية)" و"العين (الطليعة) و"العين (الجاسوس)، ... بل خُذْ لك أي كلمة لا تَجِدْ معناها محدّداً دائماً بدون ملفوظها أي الحالة التي تُعْطى فيها.

ويُقِرّ اللسانيون بأن مفهوم المعنى أو تحديده صعب الوصول إليه مقارنة بتعريف "المدلول" و"الدلالة la signification" و"القيمة la valeure"، ...

وبالفعل، فإن المدلول إذا كان يعود بوضوح إلى الحقل اللساني، وأن الدلالة تتعلق بعلماء النفس واللسانيين، فإن المعنى le sens يغطّي حقائق وتصورات جوهرية من أجل استنفادها بمقاربة أو مقاربتين[1].

2) بين الدلالة والمعنـى

- Dictionnaire de didactique des langues, p : 489

غير أن جورج مونان لا يوافق الفكرة التي تزعم أن مفهوم "الدلالة" أوضح بالقياس إلى "المعنى"، إذ يقول "كل المحاولات لإعطاء تحديد دقيق لهذه الكلمة (الدلالة) لم تؤدّ إلى مَنْفَذ مجمع عليه، تعرَّف الدلالة أحياناً كعلامة بذاتها، الأمر الذي يعني أنها شكل لساني تمثّل شيئاً آخر بنفسه، وهي منافسة لكلمة مدلولية signifiance"[2] محيلاً إلى وجهة نظر دي سوسر القائلة بأن المدلولية علاقة الدال بالمدلول، لأن المعنى لدى هذا الأخير يجب ألا يُبْحَث عنه في "محتوى un contenu" مرجعي خارج العلامة ذاتها، بل يبحث عنه داخل العلامة في علاقاته بعلاماته داخل النظام، وأما المعنى لكلمة فهو "تصور concept" أو "مدلول"، والذي لا يمكن أن يُعَرَّف إيجابيا، بل سلبياً بالقياس إلى الكلمات الأخرى الحاضرة في السلسلة التي تشمل هذه الكلمة ce terme أو تُذْكَر وحَسْبُ بوساطة التداعي الذاكرتي mémorielle، لأنها تشير أو يمكن أن تشير إلى حقيقة مماثلة لتلك التي تعَيِّن هذه الكلمة[3].

[1] ينظر

[2] - Dictionnaires de la linguistique, p : 300 – 301.

[3] - Dictionnaire de didactique des langues, p : 491

ينظر

3) المعنى لدى جون ليـون

وألمح جورج مونان إلى أن كلمتي المدلولية والمعنى غالباً ما تستعمل الواحدة منها مكان الأخرى إلى درجة أن المشاكل التي تطرح إزاء كلمة المدلولية هي نفسها تطرح حول كلمة المعنى، ولا يوجد إجماع لمزجها أو وضع تعارض بينهما، وفي نظر مونان أنه من بين التعاريف المحدِّدة الأكثر أهمية للمعنى ذلك التعريف الذي أعطاه إياه جون ليون JOHN LYONS والذي قرَّب بموجبه المعنى من القيمة la valeur بالمفهوم السوسوري، ومن ثم فإن المعنى مضادّ إلى المرجع، ويعني بهذا التقابل التضادُدِيّ مجموعة من العلاقات الدلالية الموجودة بين علامة وعلامات أخرى في اللسان، سواء أكانت إبدالية أم تركيبية، وهكذا فإن الترادف (بصفته علاقة إبدالية) والإمكانات التوافقية (بوصفها تتابعاً لكلمات في جملة) وعلاقات تركيبية يشكّلان جزءاً من جملة ما entre autres الدراسة للمعنى[1].

4) المعنى عند برييطو

ويرى مونان دائماً أن بريّيطو PRIETO كان ممن ميّز تمييزاً صارماً بين الدلالة la signification التي تُحْرَزُ أو يُحْصَّل عليها بوساطة المجموع لمداليل مجردة، والمعنى الذي يحيل إلى ملفوظ خاص ملموس وجَليّ بسياق وحالات أو ظروف، فالملفوظ: donne-le-moi (أعطني إياه) له دائماً الدلالة ذاتها، لكن معناها يتغير وفق كل ملفوظ تبعا للمكان، والزمان، وكذا المتكلمين les interlocuteurs[2]، والغرض المقصود[1].

ينظر [1] - Dictionnaires de la linguistique, p : 297

[2] – هذا المصطلح اللساني يقابل le sujet parlant ويطلق على من يستقبل ملفوظات منتجة بوساطة المتكلم le locuteur أو على من يجيب، أي هناك: متكلم / مستقبل / مجيب.

5) المعنى عند هلمسليف

وبالنسبة لهلمسليف، فإن المعنى (أو المادة) هو الجوهر أو الماهية اللسانية غير المشكَّلة دلالياً للمحتوى أو التعبير، فهو نفسه غير مشكّل بالتحديد بمعنى أنه لم يخضع بعد إلى تنظيم، ولكنه يمكن أن يكون منظماً في أي شكل، وهذا التحديد للمعنى على هذا النحو الذي تصوّره له لويس هلمسليف يشير إلى أن التكوين اللساني للمعنى تكوين اعتباطي، أي تكوينه لا يستند على جوهر أو ماهية substance، بل على المبدإ نفسه للشكل، وعلى الإمكانات التي تنجم عن تحقّقه[2].

6) تحليل جورج مونان للدلالة والمعنى

ونعود مرة أخرى إلى جورج مونان الذي يقول، بعد تساؤله: ما هي الدلالة qu'est-ce que la signification ؟: "يكفي أن نقبل بين تعريفات الكلمات: دلّ signifier ودلالة، ومعنى في أكبر المعاجم لندرك أن الشيء، ومنذ أمد بعيد، بقي أبعد ما يكون أوضح، وأن دراسة أعمال علم "الدلالة الراهن تبرهن أنها لا تبرح غير ناضجة تمام النضوج، وبعكس الفونولوجيا والسانتكس، فإن علم الدلالة la sémantique لم يُصِبْ رُشده العلمي، ذلك أن كثيراً من اللسانيين يرون أن هذا الفرع اللساني حيث يُمَارَس التطبيق لأهم البنيويين يلاقي أصعب العقباتِ .. وأما الآراء، ومثلها الأعمال، في هذا الفرع من مادتنا، فلا تزال تعطينا غالباً انطباع برج بابل .."[3].

---

[1] - ينظر المرجع السابق، ص: 297.

[2] - Dictionnaire de didactique des langues, p : 492 ينظر

[3] - Dictionnaire de didactique des langues, p : 492 ينظر

ويؤكّد مونان هنا ما ألمح آنفاً بشأن بريطو PRIETO الذي كان ممن اجتهد في التمييز بين الدلالة والمعنى، ولذا فهو يتبنّى طرح هذا الأخير، ولو بصورة مؤقتة، قائلاً: "دلالة وحدة لسانية هي مدلوله، ... ومعناه هو القيمة الدقيقة التي يكتسبها هذا المدلول المجرد في سياق وحيد، فالوحدات الخمس التي تؤلّفها الجملة: "je viendrai jeudi prochain (سآتي يوم الخميس القادم) لكل واحدة منها مدلول مستقر في الفرنسية، بيد أن المجموع لهذه المادليل يأخذ في هذا المثال معنى مختلفاً قي كل استعمال جديد"[1].

غموض المعنى عند دي سوسور

وإذا عُدَّ دي سوسور ممن أسَّس أركان علم الدلالة الحديث بنظريته حول العلامة اللسانية التي تعتبر عنده اعتباطية، خطية، تباينية، وأنها الشيء الذي يَتَّحد بلا انفكاك indissolublement، فإن خلفاءه يرون أن الرجل لم يكن واضحاً كل الوضوح فيما ذهب إليه بخصوص المدلول، فهو تارة عنده ليس أكثر من مراد للتصور أي مفهوم نفساني منطقي، وطوراً ينبّهنا على أن كلمة لا تُنْشَأ من قبل العلاقة بين صوت وشيء مشيراً إلى أن المدلول مرادف للشيء ذاهباً بهذا إلى أن مفهوم كائن يمكن أن يكون فيزيائياً ونفسانياً أو منطقياً مثل "طاولة"، "خوف"، "حرية".

المعنى والمدلول عند خلفاء دي سوسور

وأما اللسانيون والمناطقة الذي اتبعوا دي سوسور فحاولوا أن يتدقّقوا فيما طرحه الرجل بشأن المدلول، فمثلاً جارديني Gardiner وألمان Ulmann يسميان الدال le signifiant "name" والمدلول "sens" والشيء ""، بينما أوجدن ogden وريشارد richards يتكلمان عن "symbole رمز" (signifiant دال)

[1] – السابق، ص: 134.

لـ"Thought or ref thing-meanterence" (concept ou signifie تصور أو مدلول) وعن "référent مرجع" (= chose, réalité non linguistique شيء، حقيقة غير لسانية)، في حين أن شارل موريس يريد بـ"symbole" الاتجاه نفسه، و"signification" (= signifie مدلول)، و"denotatum" (= chose شيء، référent مرجع، "thing – meant"[1].

فهذه التباينات المصطلحية تثبت أن ورثة دي سوسور لسانياً لم يجاروه فيما طرحه من تصورات حول المعنى أو الكلمة أو العلامة اللسانية، بل كان لهم إجماع معلن على تعديل الإدراك الاثني (دال + مدلول) الذي قدّمه سوسور، والذي بُدّل لدى اللسانيين المشار إليهم أعلاه بإدراك مثلّثي (دال + مدلول + مرجع) أو على النحو:

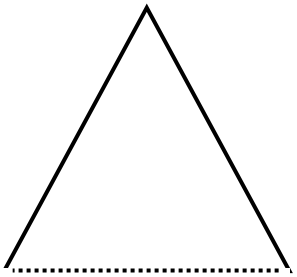

Symbol
رمز
(mot en tant que forme signiante et son image acoustique)
كلمة بصفتها شكلاً دالاً وبصورتها الصوتية السمعية.

Référent (=cohsenommée)
↓
(شيء مسمّى =) مرجـــع
لا توجد علاقة مباشرة بيـــن الشـــيء وتسميتـــه

[1] – المرجع السابق، ص: 135.

لكن هؤلاء اللسانيين أرادوا أن يتدقّقدوا فقط مما ذهب إليه سلفهم لعلهم يزيلون ما بقي يخيم من ضبابية على تلك المفاهيم الديسوسورية إزاء المعنى والمدلول وما لفّ لفَّهما، لأن الصلة بين التصور والشيء أي بين المدلول والحقيقة غير اللسانية لم يُفْلَح فيها لبناء تعريف لساني بضعي opératoire للمدلول "وكل ما بقي ليس أكثر من شجار مصطلحي لا يهمّ إلا الذين يريدون أن يتثقَّفوا على التوهمات المحصول عليها **procurées بوساطة التطريقات les forgeages أو إعادتها لمدونة المصطلحات في البحث العلمي، والتي تريد أن تتقيد بالاعتقاد الراسخ** بأنّ الأصالة لنظرية كثيراً ما تكون متناسبة عكسياً للَّفظات الجديدة التي أنتجتها"[1].

البعد الثالث للمعنـى

ويفهم من نص جورج مونان السابق أنه لا يرى ابتكاراً جديداً جدياً فيما أضافه لسانيون عالميون خلفوا دي سوسور على عرشه اللساني القوي، بل كل ما في الأمر أن الجديد لا يكاد يتجاوز تعدداً للمصطلحات أو نقل التصور للمعنى من وجهين اثنين (دال + مدلول) إلى ثلاثة أوجه (دال + مدلول + مرجع) علماً بأن التعريف الديسوسوري الصريح بأن العلامة اللسانية مجموع ما ينجم عن ترابط الدال بالمدلول[2]، أو أن العلامة اللسانية لا تربط شيئا ما باسم معين، بل تصوراً بصورة سمعية[3] لا يقصي ضمنياً بعداً ثالثاً للمعنى:

[1]- المرجع السابق، ص: 136.

[2]- المرجع السابق، ص: 136.

[3]- محاضرات في الألسنية العامة، ص: 89.

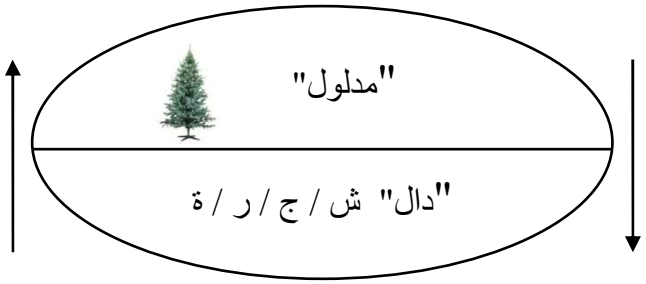

وهذا البعد الثالث الذي لم يفصح عنه الرجل يتجلّى في كون ما يرجع إلى الشجرة لا يرجع إلى غيرها "فكل شيء إنما يتمّ بين الصورة السمعية والتصور، وذلك ضمن حدود الكلمة مقدرة كمجال مغلق موجود في ذاته"[1] أو "إن قيمة الواحد لا تنجم إلا بوجود الأخرى"[2]، وأحسب أن الشكل الدائري لتصور المعنى أنسب من أي شكل سواه، لأنه شكل لا يدع ذرة تفلت من أي تصور بعكس المضلعات المثلثية أياً كان شكلها:

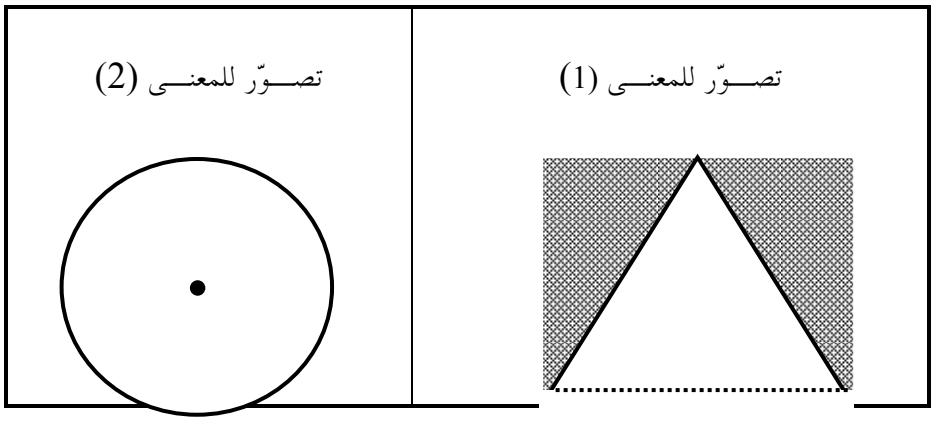

[1]- الســـابق، ص: 139.
[2]- نفســـه، ص: 140.

المعنـــــى (1)	المعنـــــى (2)
°180 معنى داخلي – معنى خارجي	°360 معنى داخلي + معنى داخلي
بعد دلالي أدنى	بعد دلالي أقصى
أكثـــر شفـــافيـــة	أقـــل شفـــافيـــة
قـــابـــل للتعييـــــر	ثـــــابـــــت
عربة، سيارة، كأس، ذخيرة، مجمع، ظهير، سفير، فاعل، مفعول، هدف، أصمّ، بيت، ...	تين، جبل، أسد، نهر، أرض، إنسان، حيوان، مكة، القدس، ...

فالشاعر العربي (امرؤ القيس) استعمل المبراة في بيته:

فكـرَّ إليـه بِمِبْـراتِـــــه كما خَلَّ ظَهْرَ اللسـانِ المُجِرُّ

غير استعمال التلميذ لها، واستعمل المُجِرَّ (الذي يَشُقّ لسانَ الفصيل لئلاّ يرتضع) في غير معنى أَجْرَرْتُ الدَّيْنَ بتركه باقياً على المديون، أو أجرَرْتُه الرمح بتركه فيه بعد الطعن.

نظام الكلمات نظام مستقل

أياً كان الأمر، فإن أحد اللسانيين (فوكولت Foucault) أظهر أن الحقيقة la réalité لا وجود لها إلا بوصفها شيئاً مُسَمَّى[1]، فنحن دأبنا على التفكير أو الاعتقاد بأن الأشياء لها أسماء (سمّ الأشياء بأسمائها، سمّ القط قطاً)، لكن "سَمَّى لا يؤول إلى وضع ملصقات على الأشياء مثلما نلصق مصطلحات إشهارية، فأسماؤنا الملصقة بنا والمدونة في هوياتنا لا تعني في عالم التصورات والمداليل إلا تعيينات لهوية وجودنا المتبادل أو المتناسخ، وإلا لما أمكن لأكثر واحد منا أن يتقمص أكثر منا، ولكنها لا تطاوعنا حتى نتمايز أسماء فيما بيننا ؟

أجل، إن شيئاً لا يشار إليه بوساطة حقيقة الفيزيائية وحدها، ولا بِالْمِلْكِيّات التي يملكها، ولا بانتمائه إلى صنف من الأشياء، ولا بطابعه الذي يقبل الإحصاء من عدمه، ولا بحضوره أو غيابه في سياق التبليغ طالما أن لغتنا ليست في حاجة إلى أن تكون الأشياء حاضرة للدلالة عليها، ولا حتى إلى وجودها، ذلك أن "النشاط اللساني نشاط رمزي، فاللسان يقوم بخدمة التوصيل إلى الفكر الذي يتلفظ بتصورات وليس بسمات labels مطبّقة على الأشياء، فَسَمَّى nommer يعود إلى تصنيف وتنظيم العالم، فالكلمات ذات سلطة تصوّرية، وأمّا الكلمة فتخلق التصور بمثل ما التصور يستدعي الكلمة"[2].

وسنبقى هكذا ندور في حلقة مفرغة بطلها أن العلامة – كما عرّفها سوسور – ماهية ذات وجهين: الوجه الدالّ الذي هو عبارة عن سلسلة صوتية خطية تكوِّن حقيقته الفيزيائية، والوجه المدلول، أي الفكرة أو التصور الذي لا صلة له بدال يقتضيه مدلول، فالكلب لا ينبح، والقطة لا تموء والبقرة لا

1 - Pour comprendre la linguistique, pm 91. MARINA YAGUELLO.
2 - Pour comprendre la linguistique, p : 92.

تخور، ... ومن ثمّ، فإن الكلمات تكوّن نظاماً مستقلاً بمعزل عما تسمَّى به، "العلامات (بما أن الكلمات علامات) تتضح الواحدة منها بالنسبة إلى الأخرى، لأن العلامة ممكن تأويلها دائماً بوساطة علامات أخرى، إمّا داخل نفس السَّنن le code بوساطة الترادف وتفسير النص paraphrase وتعريف القاموس، و إما من خلال نقل transposition في سنن آخر dans un autre code، وفي حالة الترجمة، فإن الصعوبة نفسها تبيّن أنه لا توجد علاقة تحافظ على المعنى نفسه في مختلف أشكاله univoque بين الكلمات والأشياء"[1].

استقلالية العلامة عن المرجع

وينبّه اللسانيون، مع ذلك، انسجاماً مع دي سوسور بأن الدال والمدلول مؤلَّفان غير منفصلين عن علامتهما، ومن هنا يدعوننا إلى وجوب الاحتراس من الخطأ الذي يكمن في الاعتقاد بأن الدّال هو الكلمة، وأن المدلول هو الحقيقة التي يشير إليها، فالعلامة بشقَّيها، وبوصفها عنصراً من النظام المستقل عن اللسان، هي التي تسمح لنا باستخدامها في جملة لعمل إحالة على عالم خارج لساني، وهذا العالم واقعي أو خيالي، مجرد أو ملموس، قريب أو بعيد، معلوم أو مجهول، لأن العلامة مستقلة عن المرجع، وفضلاً عن ذلك فإن العلامة من غير وجود ملفوظ، لا يوجد لها مرجع، ليس لها إلا معنى أو قيمة يوقف على تعريفها بالنظر إلى قيمة علامات أخرى، ثمّ إن دالاً واحداً يمكن أن يقابل مداليل كثيرة، والمدلولية la signification تنجم عن التداعي أو الترابط علامة / مرجع في سياق التلفظ، أي الجملة لها في الوقت نفسه معنى ومرجع، وبعبارة أخرى، فإن معيار الحقيقة لا يكون قابلاً للتطبيق إلا في جمل، لأنه لا توجد كلمات منعزلة،

[1] – المرجع السابق، ص: 92.

فالعلامة في ملفوظ فوق لساني métalinguistique ذاتية – مرجعية-auto référentiel[1].

المعنى في ضوء الميتا-لساني

وعلى ذكر الذتية المرجعية، فإن مدرس البلاغة rhéteur الإغريقي القديم الذي كان يقول لطلبته: "كلمة كلب لا تعضّ" le mot chien ne mord pas[2]، فكان له سبق الإدراك prescience ليميز بين الاستعمال اللساني واستعمال ما فوق لساني، ولذا فإن هذا المصطلح ليس غريباً أن يتقاطع مع مصطلح métalangue الذي يسمح بتكلم لغة بواسطة نفسها أو وصف لغة بذات اللغة نفسها، فقولهم: "وزعمت النحاة أن العرب أماتت ماضي (يَدَعُ) ومصدَرَهُ واسم الفاعل، وقد قرأ مُجَاهِدٌ وعُرْوَةُ ومُقَاتِلٌ وابْنُ عَبْلَةَ ويَزِيدُ النَّحْوِيُّ: "مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ" بالتخفيف، وفي الحديث "لَيَنْتَهِيَنَّ قَوْمٌ عَنْ وَدَعِهِمُ الجُمُعَاتِ" أي عن تركهم، فقد رُوِيَتْ هذه الكلمة عن أفصح العرب، ونُقِلَتْ عن طريق القُرَّاءِ، فكيف يكون إِمَاتَةٌ، وقد جاء الماضي في بعض الأشعار، وما هذه سيله فيجوز القول بقلة الاستعمال، ولا يجوز القول بالإماتة"[3] هو قول ميتا-لغوي أو ميتا-لساني، وعند اللسانيين والأنتروبولوجيين الأمريكيين أن ميتالساني كل ما هو أبعد من اللغة، أي الواقع غير اللساني الذي تحيل إليه اللغة كعالم المراجع الدلالية التي تشير إليها الألفاظ اللغوية والتعيينات أو الدلالات الذاتية والتضمينات (المفاهيم المقترنة بلفظة ما)، وهذه العوالم المحال عليها تشكل لبّ محتوى ثقافتنا وحضارتنا المعبَّر عنها عبر ما نتواصل به من لغات، ولذا فلا نعجب إذا ما وجدنا رومان جاكبسون يعتبر وظيفة ما فوق لساني إحدى وظائفه

---

[1]- ينظر المرجع السابق، ص: 94.

[2] - Dictionnaire de la linguistique, p : 213 G. MOUNIN.

[3]- المصباح المنير، ص: 653.

الست التي بمقتضاها يتخذ المتكلم السَّنَن le code الذي يستعمله كموضوع لخطابه على الأقل في وضع خاص.

الكونية الشمولية للمعاني

إن عوالم اللغات في وضعها الميتالساني تكاد تقول الشيء نفسه بالنسبة لمعانيها، لا يتصور عاقل بسيط أن ما يحيط بعالم لغة في زمان ومكان متزامنين أو حتى متباينين مختلف اختلافاً جذرياً أو جوهرياً بين لغة يجهل أصحابها لغة أو لغات أخرى، وكل اللغات تتشارك في ذخيرة ثابتة من العلامات، غير أن الواحدة تعمل على تغيير ما يمكن تغييره أو ما تقدر على تغييره بفضل تطورها التكنولوجي والفني وتنوعها الإبداعي، والأخرى لا تكاد تتجاوز عقبة المخزون الثابت لتستورد عوض ما كان على أصحابها أن يخلقوه، بسبب ساستها الذين لا يميزون بين اللغة كأداة طيعة للتعبير عن أي جديد يبتكر، والمدلولات المستحدثة في غير فضاء لغتهم، أي يسقطون عجزهم وفشلهم على لغتهم الثرية، لكن في عالم نائم من المعاني التي تنتظر منهم مجرد إشارة للاستيقاظ والفعل.

صحيح، صعوبات الترجمة من لغة إلى لغة، بينما الواقع المشار إليه يبقى هو نفسه، يَحْصُل بسببها أن التقطيع أو التقسيم التصوري مختلف من لغة إلى أخرى "وهذا الصُّنع الذي ينمّ عن استقلال اللغة ليس من السهل قبوله"[1]، ولعل إيميل بنفنيست Emile Benveniste لم يبتعد عن التوفيق، وهو يتناول ما يقرب مما نحن فيه، إذ قال: "ما هو اعتباطي أن علامة بعينها لا تكون غيرها، وتُمارَسُ على عنصر ما للواقع لا على سواه، وبذا المعنى، وهذا المعنى فقط، يُسْمَح لنا بالحديث عن حدوث شيء بعد عدم contingence، ... المسألة الميتافيزيقية للاتفاق بين الذهن والعالم مسألة ربما سيتمكن اللساني منها يوماً لعلاجها بشيء من النضج،

[1] - Pour comprendre la linguistique, p :96.

وطَرْحُ العلاقة كاعتباط تُعَدّ بالنسبة للساني كيفية لتفنيد التهمة ضد هذه المسألة، وكذا ضد المتكلم le sujet parlant الحامل إياها فطرياً، لأنه بالنسبة للمتكلم ما يوجد بين اللسان والواقع يعتبر مطابقة كاملة، فالعلامة تعطي وتوحي بالواقع، ... والحق يقال، إن وجهة نظر المتكلم ووجهة نظر اللساني مختلفان بهذا القدر بسبب أن تأكيد اللساني للاعتباط لتسميات لا يفنّد الشعور المعاكس للمتكلم، لكن مهما كان الأمر، فإن طبيعة العلامة اللسانية غير ضرورية إذ عرَّفناها كما عرّفها دي سوسور، لأن خصوصية هذا التعريف بالضبط لا تتفرس إلا العلاقة بين الدال والمدلول، مما يعني أن ميدان الاعتباط نُبِذَ هكذا خارج الفهم للعلامة اللسانية"[1].

وإذا كنا نميل قطعياً إلى كونية شمولية للتصورات المشركة التي تتعاطاها ألوف من الألسنة الطبيعية، ومثلما أشار إلى ذلك dumarsais منذ العقد الثالث من القرن الثامن عشر (1729): "توجد ملاحظات في القواعد تتناسب مع كل اللغات"[2]، فإن شومسكي يرى أنّ رؤية مارسي تشكّل ما نسميه قواعد اللغة العامة مثل الملاحظات التي نبديها على الأصوات التي تُنْطَق، وعلى طبيعة الكلمات، وحول الكيفيات المختلفة التي يجب أن تكون منسّقة arrangés لخلق معنى، وبالإضافة إلى ذلك أن هذه الملاحظات العامة لا تخصّ إلا لغة خاصة، وهو ما تشكله القواعد الخصوصية لكل لغة[3].

إن اللسانيين لا يزال ينقصهم الكثير من الوقت والجهد لإثبات تشابه الألسنة في بنياتها الخاصة، ولكنهم توصلوا إلى ملاحظة تشابهات لا يستهان بها فيما يخص التنظيم السطحي لها، مثال ذلك أن كل الألسنة المعروفة تحوي

---

1 - Problèmes de linguistique générale, p : 52 – 53 Benveniste.

2 - Dictionnaire de didactique des langues, p : 579.

3 - يراجع المرجع أعلاه، ص: 579 – 580.

تمفصلات مزدوجة على مستوى الوحدة الدالة (المورفيم أو المونيم)، والوحدة الصوتية التمايزية (الفونيم)، وتشمل فونيمات محصورة غالباً ما تكون أقل من خمسين، فضلاً عن الفئات السانتكسية (رسم، فعل، فاعل، ...) وعلاقة المسند بالمسند إليه ...[1].

لا توجد لغة عالة على لغات أخرى

غير أن الإشارة السابقة لتشابه اللغات في بنيتها الفونولوجية والنحوية والدلالية لا تنهض دليلا على وجود لغة عالة على لغة أخرى، كل لغة تعبّر عن عالمها الخاص والعام بكيفية لا تعبر بها لغة أخرى في كل حال، فنحن نعبّر بضمير وحيد عن المثنى المؤنث والمذكر، والجمع مذكراً ومؤنثاً، إذ نقول:

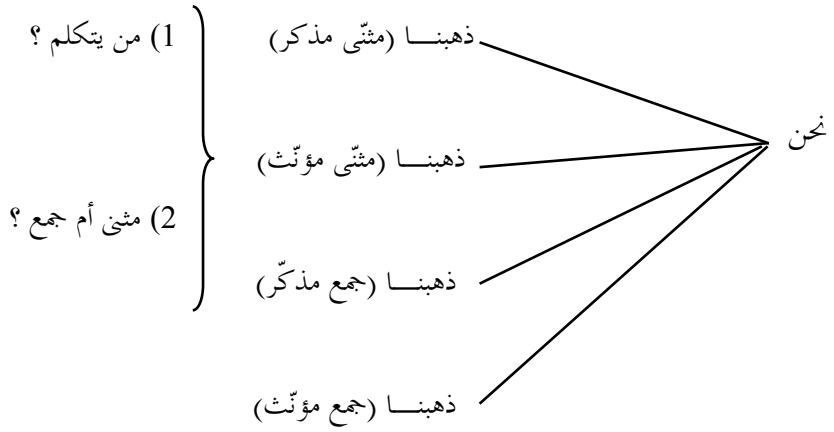

[1] - ينظر المرجع السابق، ص: 580.

الفرنسية أسوأ من العربية

والفرنسية أسوأ من العربية، لأنها لا تعبر إلا بضمير وحيد nous (نحن)، ولا وجود للمثنى فيها، وهذا يختلف تماماً مع الواقع الميتلساني، وهذا خلافاً للغات أخرى كالملغاشية، واللغات الهندية الأمريكية، والفليبينية، وبعض اللغات الآسوية، ...[1]، ولغات تميز تمييزاً دقيقاً بين الجنس كما أوضحت اللسانية مارينا باغيلو Maina Yaguello في أحد أبحاثها (الكلمات والنساء)، ولغات أخرى لا تفعل ذلك بدقة أو لا تميز تماماً.

المعاني انعكاس لعالمنا

وإذا كنا لا ننكر أن اللغات شبكة آمنة من المعاني اليقظة والنائمة، فإنها تتفق في شيء، وتختلف في شيء آخر، تتفق في عالمها اللانهائي، وهو العالم المشترك، وفيه تتنافس اللغات عولمياً، وتختلف في عالمها النهائي وهو العالم المتميز، وفيه تتصارع اللغات محلياً وعولمياً معاً، والبقاء لما هو مستعمل وعامل، و الفناء لما هو جامد أَشَلّ.

لقد أثبت اللسانيان الأمريكيان إدوارد ساپير وَوُرْفْ E.Sapir – Whorf أن التقطيع اللساني le découpage linguistique لا يتزامن مع الواقع، وهذه الفرضيات تطرح مبْدَأً أن رؤية المتكلمين للعالم تجد نفسها محددة تحديداً كلياً من خلال لسانها، وكتب بنيامين لي ورف ذات يوم أن كل لسان "نظام رَحْب من البُنى يختلف عن نظام الألسنة الأخرى، وهي تنسّق ثقافياً الأشكال والفصائل التي لا يتصل بها الفرد وحسب، بل يحلل أيضاً الطبيعة، ويستقبل أو يهمل هذا النمط أو ذاك للظواهر والعلاقات التي بواسطتها يعبر عن تصرفه في التفكير،

[1] - Pour comprendre la linguistique, p : 98 ينظر

والتي عَبْرَها يُنْشِئ تكوينه لمعرفته للعالم، وأننا نُشَرِّح الطبيعة تبعاً لخطوط مرسومة سلفاً من خلال ألسنتنا الطبيعية"[1].

كل لغة موصولة بنفسها أم بغيرها ؟

ومما فرضه وُرِفْ Whorf أن اللغات المتباينة تعكس العالم الذي حولنا عكساً مختلفاً "بل إن المفاهيم العامة الأبدية مثل الزمان والمكان اتخذت مسميات مختلفة في اللغات المتباينة، ويكشف لنا كل هذا عن أوجه الاختلاف في الدلالة على الأشياء والألوان والظواهر والخصائص المميزة، وهذه حقائق أكّدها علم اللغة، ولا سبيل إلى دحْضها، بيد أن الحقائق يمكن تأويلها بطرق متباينة"[2].

ذهب ورف إلى أبعد من ذلك لَمَّا زعم أننا أسْرى اللفظ، وأن لكل لغة ميتافيزيقيا خاصة بها، ولكن ما من شك في أنه كان محقاً حين ذهب إلى أن اللغة تؤثر على تفكيرنا في ظروف معينة، حتى وإن اعتُرِضَ عليه من بعض الدارسين أن التأثير يتعلق بنمط التفكير لا بجوهره.

وانطلاقا من أن لكل لغة ميتافيزيقيا خاصة بها دون إلغاء التماثلات التحتية للمداليل الأكثر شيوعاً بين اللغات، وإلا ألغينا العالم اللانهائي المشترك بينها، فإن لكل لغة، بوصفها مؤسسة جماعية وتقليدية تربط الخلف بالسلف والماضي بالحاضر وتصل هذا الأخير بالمستقبل، شُذُوذَها ولا معقوليتها، وكلُّ لغة تعبر عن لا تَمَاثُل مُلازِم لطبيعة العلامة اللسانية "لكن هذا لا يجعل اللغة أقل من أن تكون نظاماً منصاعاً لمستوى نوعي ومُمَفْصَلاً من خلال مجموعة علاقات

---

[1]- المرجع السابق، ص: 99.

[2]- الأصوات والإشارات، ص: 65. أ. كند راتوف.

تحتمل تعقيدات، إن العمل المتمهل واللامنقطع الذي تَمَّ داخل لغة لا يحدث صدفة، إنه يقوم على علاقات أو تعارضات، والتي هي ضرورية أو غير ضرورية، بحيث تعمل على تجديد أو مضاعفة التمييزات المفيدة في كل مستويات التعبير، وأما التنظيم السيمانطيقي للغة فلا يتخلص من هذا الطابع النظامي، ولأن تكون اللغة أداة لتنظيم agencer à العالم والمجتمع، فإن هذا يجب أن ينطبق على عالم معتبر كـ"واقعي réel" على أن يعكس عالماً "واقعياً" سوى أن كل لغة هنا ذات حالة نزوعية تصوّر العالم بأسلوبها الخاص، والتمييزات التي تتمظهر بها كل لغة يجب أن تكون معزوَّة إلى المنطق الخاص الذي يدفعها، لا أن تكون خاضعة دفعة واحدة d'emblée إلى تقويم شمولي universelle، وبهذا الخصوص، فإن اللغات القديمة أو الأركية archaïques لم تكن أكثر ولا أقل شذوذية من تلك التي نتكلمها، كل ما لها وحَسْبُ التفرّد الذي نُعِيره إلى الأشياء مألوف قليلاً، ومع ذلك فإن فصائلها leurs catégories الموجّهة بخلاف فصائل لغتنا لها التحامها"[1].

إذا رغب راغب في أن تكون له لغة مستقلة لا تعبر إلا عنه، فَلْيَبْحَث عن عالم من المعاني لا يتصل إلا بلغته، والعكس غير مردود "ن، والقلم وما يَسْطُرُونَ" لا تعني إلا "ن، والقلم وما يسطرون" سواء عُبِّر عنها بالعربية أم بغيرها، إلا إذا لم يكن في عالم لغة "نون"، ولا "قلم" و لا ... ومن ثمّ، فإن الأهمية لا تُعْطَى للغة لتي تستعمل القلم بقدر ما تُعْطَى لقوم متعلمين وآخرين أمّيِّين، لقوم يعرفون كيف يسخّرون هذه الأداة سواء قُدَّتْ من قصب أو معدنٍ راقٍ، وآخرين يتباهون بشكلها وبهاء لونها ومصدر صنعها دون زيادة ولا نُقْصانٍ، ومثلما الكلب لا ينبح، والذئب لا يعوي، ... فإن القلم أيضاً لا يَسْطُر.

[1] - Problèmes de linguistique générale, p : 82 BEVENISTE.

الصلة بين الصوت والمعنـى

ومما تقدم يشير، وبدون تحفظ، إلى أن الصلة بين الصوت والمعنى، بين الدال والمدلول صلة مواضعة وسَنَن ثقافي معتاد، على الرغم من أن اللغة بالنسبة للمتكلمين تتطابق في منظورهم مع عالم يعتبرونه طبيعياً، ولم يعد اليوم، ومنذ مدة، بين اللسانيين المحدثين خلاف جوهري في أنه لا توجد صلة طبيعية بين وجهي العلامة بتصور دي سوسور، وما قد يوجد من محاكيات صوتية les onomatopées في لغة أو كل اللغات المعروفة لا يقوم مبرراً على أية صلة طبيعية بين [ق / ل / م] ووظيفته، وما قد يجأ إليه متكلم عفواً أو قصداً لا يعدو أن يكون حالة عرضية خارج المألوف أو وظائف فوق مقطعية، فأنت إذا أعجبت بصوت السين وصفيره الدال على عزة البحتيري وكرامته وأنفته:

صنعت نفسي عمـا يدنّس نفسي وترفّعت عن جـدا كل جِبْـس

و تماسكت حين زعزعنـي الدهر والتماسـاً منه لتعْسى وتُكْسـي

فإن هذا الانفعال اللامتوقع من المتكلم لا ينهض دليلاً على أن الكلمات التي احتوت السين تحكي أصواتها الأشياء التي تصفها.

علاقة الدال بالمدلول عند بنفنيست

ومع ذلك، فإن بنفنيست لم يتوان في انتقاء فكرة الاعتباط بين الدال والمدلول بالنسبة لدي سوسور، حيث بيَّن "أن لصلة بين الوجهين للعلامة إلزامية، ولو أنها غير معلَّلة immotivé، لأنها بحق مكوِّن للعلامة التي لن يكون لها وجود خارج هذه الصلة، بينما ما هو اعتباطي غير ملزم، إنها الصلة بين اللغة والعالم، بين الكلمات والواقع المعيَّن، بين العلامة والمرجع، وهذه الصلة هنا هي

التي يبذل المتكلمون فيها بسذاجة قصارى جهودهم لتبريرها وعقلنتها من الخارج بشكل منطقي تماماً، بما أن اللغة تُبَنْيِنُ structure لديهم الحقيقة" [1].

ويقصد بنفنيست من كون الصلة بين الدال والمدلول صلة إلزامية وقاهرة، بدعوى أنك لو تحدثت بلغة ما، فإنك لن تكون مخيَّراً حتى تختار الصلة التي تربط دالاً بمدلول، بل كل ما في الأمر أنك تختار بين العلامة اللسانية وبين ما تشير إليه من أشياء وأفكار[2]:

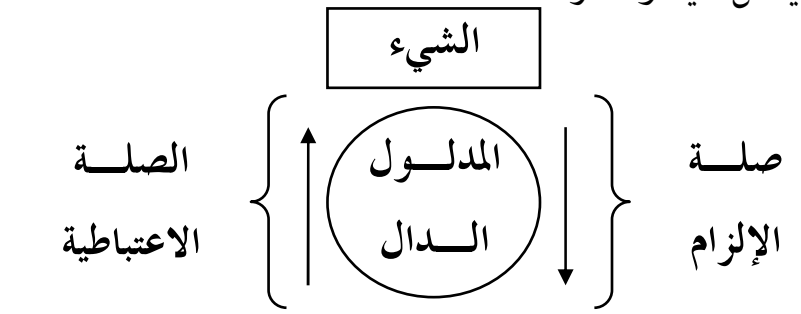

يجب ألاّ نغالط أنفسنا بأية سهولة إزاء ما ندركه من معاني تحتية لا حصر لها بفضل عدد محدود من الأصوات التي تنمّ عنها سطحياً، ولا تفسّرها، ومع ذلك، فإن ما نرثه من معاني قديمة أصبحت الصلة بين دوالّها ومداليلها إلزامية، إذ لا يحق لنطاق بالعربية أن يعبر بالبحر عن البر، وبالسماء عن الصحراء، وبالفاعل عن المفعول، وبالألف عن المتر، ... كل شيء انتهى لحظة المواضعة.

لكن تباين المعاني سطحياً لا تحتياً رحمة واسعة بين الناس الذي يتناولون المعاني نفسها:

---

[1] - Pour comprendre la linguistique, p : 103.

[2] – ينظر مدخل إلى اللسانيات، ص: 59 رونالد إيلوار.

العـــلامـــة	اللغـــــــات			
	العربية	الفرنسية	الإنجليزية	الإيطالية
	شجرة	Arbre	Tree	Albero

وكل ما في الأمر لأي متكلم تابع أن يقرّ بنوعين من اعتباطية المعنى: اعتباط مطلق، واعتباط نسبي، فالأول يشمل ما لم يدخل عالم المواضعة والاستعمال، والثاني يعني عكس ذلك، فالأول ينحو نحو الثبات الذي لا يتحقق له في كل حال، والثاني مفتوح أمام كل احتمال للاكتساء بمعاني غير متوقعة.

مراجع البحث:

- محاضرات في الألسنية العامة. ف. دي سوسور، ترجمة: يوسف عازي، مجيد النصر، دار نعمان للثقافة 1984 بيروت.
- المصباح المنير، الفيّومي. المكتبة العلمية، بيروت.
- الأصوات والإشارات، أ. كندراتوف. ترجمة شوقي جلال الهيئة المصرية العامة للكتاب 1972.
- مدخل إلى اللسانيات: رونالد إيلوار، ترجمة: د. بدر الدين القاسم، جامعة دمشق، ط" 1980.
- Dictionnaire de didactique des langues, R. Gallison/ D.Coste. Hachette. 1976.
- Dictionnaire de la linguistique. G. Mounin presses universitaires de France, Paris 1974.
- Pour comprendre la linguistique, Marina Yguello éditions du seuil 1981.
- Problèmes de linguistique générale. Emile Benveniste, éditions Gallimard 1966.